

التفكير بين الإنسان والحيوان

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

وبعضها جذب لاطعام فيه ، فيتسكّر الوسائل يتجنب بها المجاعة ، ويهتدى بمد تدبر وإعمال روية إلى ما نعرفه من مختلف أساليب خزن المياه وحفظ الأطعمة ، وعدم الاكتفاء بما تدر الأرض بطبيعتها ؛ فيزرع ويستقل كامن قواها . يخشى هجمات الوحوش الضارية ، وعدوان الغبائل المادية ؛ فيتخذ المدة لذلك بصنع الأسلحة مستخدماً كل ما تقع عليه يده من أحجار وأشجار ومعادن . وهو إذ يفعل ذلك يهتدى بذكائه ، بتفكيره العمل الذى يتطور مع الزمن تطوراً يكشف عنه ما لاحظته العلماء المنقبون عن آثار المصور البائدة من تطور الآلة الإنسانية من الآلة الحجرية القديمة إلى الحجرية الحديثة إلى المدنية ؛ والأسلحة من الأحجار إلى النبال فالخنجر والسيوف فالبنادق حتى القنبلة الذرية فى العصر الحديث .

وهكذا فى كل ميدان من ميادين الحياة يستخدم الإنسان تفكيره وسيلة لتحقيق أغراضه ، وهذا هو الأصل فى التفكير : وظيفة حيوية عملية تعين الحيوان على الصمود فى الحرب الخالدة بينه وبين قوى العالم الطبيعى التى لا تعرف التراجع ، وذلك أن الفطرة وحدها لا تكفل انتصاره .

بيد أن اختلاف التفكير الإنسانى عن التفكير الحيوانى ليس اختلافًا فى المرتبة أو الكمية فحسب ؛ بل هو اختلاف فى النوع أو الكمية أيضاً . فتفكير الحيوان عملي كله ، هو برسته وسيلة إلى العمل ، إلى الحياة والبقاء . لا يستغل الحيوان قدرته العقلية المتواضعة إلا فى إرضاء مطالبه الغريزية : من الاغتذاء ، والاحتباء ، وحماية الصغار ، والتنافس إلخ . أما الإنسان فبعد إرضاء مطالبه الغريزية يستغل قواه العقلية فى الكشف عن أسرار ما يدركه من ظواهر الكون والبحث عن علل الحوادث التى تقع تحت ناظره ، وتفسير التغيرات التى تطرأ على مختلف الكائنات . ولا شك أن الحيوان كالإنسان فطر على حب الاستطلاع اسكل جديد تجنّب لما قد يطرأ عليه من خطر ، أو طمعاً فيما قد يدره من خير ونعمة ؛ ولكن الإنسان يتجاوز هذه الحدود النفعية فيستطلع أحياناً من أجل المعرفة فى ذاتها ، ويبحث من وراء ذلك لذة لا تقل عن اللذات الجسدية التى يمنحها من وراء إشباع موهله الغريزية الأخرى .

لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفكر أحياناً من أجل التفكير فى ذاته ، بل والذى يجاوز ذلك إلى التفكير فى التفكير : يحصى أساليبه ، ويفتش عن مصادره ، ويسجل

كشفت البحوث النفسية فى مجالى الإنسان والحيوان عن حقيقة قد تطامن من غرور الإنسان ببعض الشيء ، تلك هى أن الحيوان لا يسلك سلوكاً آلياً بحتاً كما ظن ديكارت الفيلسوف الفرنسى ، بل ولا يسلك سلوكاً غريزياً بحتاً كما اعتقد الكثيرون زمنًا طويلاً ، وإنما سلوكه فى كثير من المواقف يتم عن قدر من الذكاء العملى يمكنه من التصرف إزاء ما يجد من مواقف تصير كافيلاً بتحقيق أغراضه . فهو لا يهتدى بالفطرة وحدها التى تسم السلوك بطابع الجود ؛ وإنما هو يعدل سلوكه ويتسكّر الوسائل الجديدة ، حتى ليسهل علينا أن نلاحظ — لدى الحيوانات العليا على وجه الخصوص — أعاطا من السلوك تنصف بالرونة ونتم عن قدر من الذكاء لا يقل كثيراً عن ذكاء الأطفال فى نفس المواقف . ومن التجارب العلمية ما يثبت قدرة الحشرات على الاستفادة من التجارب الماضية فى التكيف للظروف الجديدة ، وفى هذا نكمن البذرة الأولى للذكاء .

وكما صعدنا فى السلسلة الحيوانية زاد ذلك القدر من الذكاء العملى الذى يلبم أقصاه لدى الكلاب والقرود . وبذلك تتلأهى الأسطورة القديمة التى تفصل فصلاً حاسماً باتاً بين عالم الحيوان المحكوم بالغريزة ، وعالم الإنسان المحكوم بالعقل ، وتسفر الحقيقة التى لا مراء فيها : ألا وهى أن الكائنات الحية تنظم سلسلة متصلة الحلقات من أسفل إلى أعلى ، منطلقها التطور من الأشكال الدنيا للحياة إلى الأشكال العليا فى غير ما اختلاف حاد يكسر وحدة الحياة على ظهر الأرض ، وتضيق الشقة الفاصلة بين الإنسان والحيوان . فكلاهما يسلك سلوكاً غريزياً وكلاهما يسلك سلوكاً عقلياً رائده الذكاء . فما الفارق إذن بين ذكاء النوعين ؟

الإنسان من حيث السلوك العقلى فى قة الحيوانات ؛ فهو أقدرها على السلوك سلوكاً عقلياً . هو فى حياته بصارع الطبيعة وأحداها ، لا بحكم الفطرة فحسب ، بل يفوق الحيوان قدرة على استقلال ذكائه فى صراعه هذا مع الطبيعة . تقسو عليه بيردها وقيظها وأمطارها فيهرع إلى الأشجار يتخذ من أغصانها بيتاً . تتوالى عليه فصول السنة بمضها فيه الخصب ووفرة الغذاء ،